# الدّاعي

مجلة عربية إسلامية شهرية

تصدر عن الجامعة الإسلامية : دارالعلوم ديوبند ، يوبي ، الهند


بسم الله الرحمن الرحيم

ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ (القرآن الحكيم)


ISSN 2347-8950

**العـــــدد : ٤ ، السنـــــة : ٤٩**

**ربيع الآخر ١٤٤٦هـ ، أكتوبر ٢٠٢٤م**



تحت إشراف

**فضيلة الشيخ أبوالقاسم النعماني**

رئيس الجامعة

رئيس التحرير

**محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري**

الأستاذ بالجامعة



**الاشتراكات**

- ثمن النسخة: ٣٠ روبية هندية

قيمة الاشتراك السنوي

- في الهند : ٣٠٠ روبية هندية
- وفي خارج الهند للأفراد : ٦٠ دولارًا
- وللمؤسسات الحكومية : ٨٠ دولارًا

**عنوان المجلة على الانترنت**

Web : https://darululoom-deoband.com/arabicmagazine

**طالعها الآن**

البريد الالكتروني

E-mail : info@darululoom-deoband.com

**المراسلات**

**رئيس التحرير مجلة الداعي**

**دارالعلوم ، ديوبند ، يوبي ( الهند )**

**الرمز البريدي ٢٤٧٥٥٤**

**Chief Editor**

***AL – DAIE***

Arabic Islamic Monthly
Darul – Uloom,
Deoband – 247554
( U.P.) INDIA

الهاتف والفاكس

**Ph. : (00-91-1336) 222429**

**Fax : (00-91-1336) 222768**



المواد التي تنشرها المجلة تعبر عن وجهة نظر كاتبيها و لا تعبّر – بالضرورة – عن رأي المجلة

# النظر المقاصدي في السيرة النبوية الشريفة

بقلم: أ. د. رشيد كهوس (*)

**تقديم:**

لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تظل السيرة النبوية العطرة مجرد جزء من التاريخ، ذلك بأن الأمة المسلمة اليوم في أشد الحاجة إلى معرفة المنهج النبوي في إصلاح النفس وصناعة الإنسان وبناء المجتمع والدولة والعمران، والذي تكشفه لنا سيرةُ سيدِنا رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، للتأسي به في جوانب الحياة الإنسانية كلها، وإن تحقيق هذا مرتبط بإعادة قراءة النص السيري قراءةً مقاصديةً، والوعيِ بها، وتجديدِ فهمها، بما يتوافق مع قضايا العصر ويؤكد خلود السيرة النبوية وصلاح تنزيلها في كل الأجيال.

وإن تفاصيل السيرة النبوية الغراء في حقيقتها عبارة عن منهاج المقاصد، إذ هي الوعاء الذي استوعب المقاصد قولًا وفعلًا، وتنظيرًا وتنزيلًا، تتجاوز حدود الزمان والمكان، لتجيب عن أسئلة كل عصر وتحل مشكلاته ونوازله.. ذلك بأن المشاهد السيرية ليست قوالب جامدةً، ولم تكن خاصةً بعصر النبوة فقط؛ بل هي استوعبت كلَّ مجالات الحياة الإنسانية، والحالات التي ستمر بها المجتمعات البشرية.. لأنها مصدرُ الأسوة والقدوة لكل الناس في سائر العصور..

ذلك بأنها تحمل في تفاصيلها وكلياتها منهاج حياة رسولٍ ونبيٍ أنقذ البشرية جمعاء وأخرجها من الظلمات إلى النور، تجسدت فيها تعاليم الإسلام وأحكامه وعقائده وتشريعاته وأخلاقه، بصورة كاملة عملية، فكانت للمسلمين نورًا يستضيئون بها، وهاديًا لهم في سبل الحياة وظلماتها..

من أجل ذلك أحبت الأمة رسالته ﷺ الخالدة، وتعلقت بسيرته الطاهرة، وشخصه العظيم؛ وسجلت أوصافه وأخلاقه وشمائله، واعتنت بأيامه ومشاهده، ذلك بأن سيرته الخالدة تمثل مرحلة تشريعٍ بالنسبة للبشرية جمعاء؛ بل إنها مرحلة ميلاد الإنسان من جديدٍ..

وعلى الرغم من المؤلفات السيرية الكثيرة قديمًا وحديثًا، رغم رصانتها وجدتها، إلا أن أغلبها قد اتسم بالمنهج السردي والقراءة الحرفية والنظرة التجزيئية لنصوص السيرة ومشاهدها..، قراءة اقتصرت على جوانب دون أخرى، الأمر الذي نتج عنه تأويلات فاسدة تقصر عن إدراك روح الوحي ومقاصد الشرع التي تجلت في تفاصيل السيرة الغراء..

في حين أن في السيرة النبوية العطرة ثروةً

(*) أستاذ التعليم العالي ورئيس شعبة أصول الدين وتاريخ الأديان- كلية أصول الدين بتطوان-جامعة عبد المالك السعدي-المغرب

زاخـرةً يمكـن اسـتثمارها في إعـادة تـشكيل مـنهج التفكـير والعمـل لـدى المـسلم، والعـودةِ بالأمـة إلى وظيفـة الـشهادة وقـيم الخيريـة والوسـطية والعالميـة، والنهوض بأمانة الاستخلاف في الأرض..

والحاصـل أن الأمـة اليـوم في أمـسّ الحاجـة إلى النظـر المقاصـدي في الاسـتمداد مـن الـسيرة النبويـة العطـرة.. فـالنظر المقاصـدي في الاسـتمداد الـسيري إنـما اسـتدعته مقتـضيات تحقيـق خلودهـا والامتـداد بهداياتها، وبسطها على جميع جوانب الحياة والتدليل على رعايتها لمصالح العباد، وتخليص الفهـم والفقه وعلى الأخص في عصور التقليد والجمود والركود العقلي من النظرة الجزئية والصورة الآلية المجردة البعيدة عن فقه الواقع، حيث انتهى الأمر إلى قواعد مجردةٍ وقوالب بعيدةٍ عن الارتباط بالغايات الأصلية التي قـد تكـون انتهـى إليهـا، إلى درجـة قـد تفـوت المـصلحة، وإعـادة توجيهـه صـوب تحقيـق مـصالح العبـاد في معاشـهم ومعـادهم، وهـي الغايـة التي مـن أجلها جاءت الشريعة وبعث سيد الخليقة وكانت الرسالة، ومعالجة مشكلات المجتمع والتعامل مع قضاياه وحاجاته[1].

**١ - السيرة النبوية تعبـير واقعـي عمـلي عـن مقاصـد الشريعة:**

إن الـسيرة النبويـة جـسدت في حقيقتهـا صـورة الإسلام الحية، ومقاصده العامة والخاصة، وانطوت عـلى أرقـى المقاصـد وأكبرهـا، وأعـلى المـصالح وأعظمها، فمنها استفيدت العديد من الخصائص العملية العامة للإسلام المتصلة بالمقاصد الشرعية، على نحو خاصية التيسير والتخفيف ورفع الحرج، والوسـطية والاعتـدال، والعـدل والرحمـة، واللـين والواقعية وغير ذلك من الخصائص الكلية والسمات العامة... ومن ثم كانت مفتاحًا لفهم صناعة الحياة الإنسانية والنهضة الإسلامية منذ أكثر من خمسة عشر قرنًا فلماذا لا تكون مفتاحًا لفهم الحاضر، وإصلاح الواقع وإبصار المستقبل من أجل إعادة الأمة إلى موقعها الحضاري.

لقد تجلت مقاصد الشريعة في السيرة النبوية تجليًا عمليًا، ذلك بأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو المبعوث بهذه الشريعة الغراء الخاتمة، والمبلِّغ لأحكامها، والمعرِّف بمقاصدها، ولما كانت مقاصد الشريعة هي المقاصد التي قررها الوحي القرآني، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قرآنًا يمشي على الأرض كما وصفته أم المؤمنين السيدة عائشة الصديقة رضي الله عنها، فقد تجلت هذه المقاصد في أيامه الخالدة، وحياته اليومية، وتصرفاته المسددة بالوحي، إذ من خلال النظر في سيرته الغراء ومنهاجه العملي يتضح لنا بجلاء البعد المقاصدي الذي اصطبغت به سيرته الغـراء وسـائر تـصرفاته الـشريفة وأحوالـه المنيفـة وأيامه الخالدة..

لقد حافظت سيرة خير الأنام عليه الصلاة والسلام على مقاصد الشريعة وسعت إلى تحصيل مصالح العباد في العاجل والآجل؛ ومن ثمة كانت في سائر مراحلها وأحوالها ومشاهدها تهدف إلى حفـظ مـصالح النـاس الـضرورية فالحاجيـة ثـم التحسينية، حيث يتم في هذه المستويات الثلاثة

الحفاظ على الأصول الكلية الخمسة الممثلة في: الدين والنفس والعقل والنسل أو العرض والمال.

فمن أجل حفظ الدين سخر النبي ﷺ حياته كلّها لحفظ هذا الدين الذي بعث من أجل تبليغه، حيث اتخذ دار الأرقم بن أبي الأرقم بمكة المكرمة مركزًا لتلقين الوحي وتصحيح العقيدة وترسيخ مبادئ الدين في النفوس.. كما اتخذ مسجد المدينة المنورة محضنًا للتزكية وتعليم أمور الدين.. كما كانت مشاهده كلّها من أجل إقامة الدين ومن أجل أن يعبد اللهَ تعالى في الأرض.

أما حفظ النفس فقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حريصًا على إحياء النفوس، مشددًا الوعيد لكل من يعتدي على نفوس الآخرين ظلمًا وعدوانًا، حاثًا على كل ما ينفع النفس الإنسانية في الدنيا ويقيها عذاب جهنم في الآخرة..

ولقد أحيا نفوس الخلق ببعثته الغراء، وأخرجها من عبودية الخلق إلى عبودية الخالق، ومن ظلمات الجاهلية إلى أنوار الهداية الإيمانية.. وما تدرجه في الدعوة وغزواته وسراياه وبعوثه إلا من أجل الحفاظ على النفوس وإنقاذها من براثن العبودية لغير الله..

ومن أجل حفظ العقل فقد حرر النبي ﷺ العقول من أوهام الجاهلية وخرافاتها، ونهى عن كل ما يضر بها، ورباها على النظر والتدبر في ملكوت السماوات والأرض، وحثها على العلم، وحببها في قراءة الكون البديع لتوحيد الله تعالى، ولتسخير ما بثه الله في هذا الكون من أجل مصلحة الإنسان..

وفي حفظ النسل أو العرض: فقد كان يحث أصحابه وأمته جمعاء على الزواج، ويساعد الشباب عليه، وينهى عن الفواحش والاعتداء على الأعراض، وعن كل مدنسات الشرف، كما كان ينزل العقوبة بكل من يعتدي على العرض أو النسل.

أما عن حفظ المال: فقد قال في خطبته يوم حجة الوداع والبلاغ: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ، وَأَعْرَاضَكُمْ، بَيْنَكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا»(٢). «لَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ»(٣).. فبحماية هذا المقصد هيأ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عناصر التماسك والاستقرار، وهو ما يكفل للناس الأمن الاجتماعي واحترام حقوق الآخرين.

**٢- السيرة النبوية أنموذج لتحصيل مصالح العباد في الدارين:**

لم تكن وظيفة الرسل مع أقوامهم إلا تحقيقًا لمصالح الخلق في المعاش والمعاد، وبناءً لقيم الصلاح، ومكافحةً ودرءًا واجتثاثًا للفساد.. إذ الأصل في المنهاج النبوي العملي: الرحمة بالخَلق، وهدايتهم، والتواصل معهم بالمعروف، والعدل بينهم؛ وإشاعة قيم التعارف والأخوة والسماحة والعفو، والبر والقسط بينهم، وحفظ الأمانة والعهود معهم، والإحسان لهم في القول والفعل...، وغير ذلك مما اشتملت عليه منظومة القيم والأخلاق النبوية التي هي جوهر الرسالة السماوية وروحها. فصاحب الرسالة الغراء صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إنما بُعِثت لأتمِّم صالح الأخلاق»(٤)، وفي

رواية: «مكارم الأخلاق»(٥).

هـذا، ولمـا كانـت الـشريعة موضـوعةً لأجـل تحقيق مصالح الناس في الدنيا والآخرة، وأن حفظ تلك المصالح يتدرج في ثلاث مراتب؛ فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سائر تصرفاته الشريفة ومشاهده الخالدة وأحواله المنيفة كان حريصًا على مراعاة قصدِ الشارع إلى تحصيل تلك المصالح بما يضمن الحفاظ على الكليات الخمس وما يتصل بها أو يلحق بها من مقاصد ومصالح وقيم، فقد بُعث ﷺ ميسرًا، وكان منهاجه منهاج التيسير ورفع الحرج وعدم التكليف بالمشاق، كما أخرج المكلفين عن داعيـــة أهـــوائهم إلى الالتـــزام بأحكـــام الـــشرع وتوجيهاته وموافقه مقصوده..

وفضلًا عن ذلك فإن السيرة النبوية مدارها على جلب المصالح ودفع المفاسد، وتقديم المصلحة العامة على الخاصة، فقد أعطى النبي ﷺ جزءًا من ثمار المدينة لقبيلة غطفان، مقابل انصرافهم عن حلفهم الذي عقدوه مع الأحزاب، وهذا نوع من تفكيك للأحزاب وتشتيت شملهم، وغطفان كبيرة ومتفرعة، وقد شاركوا يوم الأحزاب بستة آلاف مقاتلٍ..

ومن ثم فإن رسالة سيدنا محمد ﷺ هي رسالة خير ورحمة وحفظ لمصالح الخليقة كلها، فلا يكون منها للناس جميعًا إلا الخير والرحمة، حتى لأولئك المشركين الذين تصدوا للرسالة وأعنتوا صاحبَها، حيث لم يأخذهم اللهُ بما أخذ به الأممَ السابقة الذين تحدّوا رُسلَ الله، وكفروا بهم، وبما يدعونهم إليه...

لقد بعث الله رسول الله الأمين ﷺ بالرحمة على فترة من الرسل؛ لإنقاذ الناس من الأوهام التي أُرْكِسُواْ فيها، وصاروا بها في عمياء لَا يدركون معها حقًا من باطل، وأنهم كانوا يتسافكون الدماء، وقد أكلت العداوة كلّ معاني الخير في فطرهم، واشتفت كلّ ينابيع المودة في صدورهم، وكان -ﷺ- رحمةً بلسانه وعمله وإقراره حتى ترك الناسَ على المحجة البيضاء التي ليلها كنهارها.

ومن ثم فإن المستقرئ للسيرة النبوية الغراء يتضح له جليًا أن جميع ما جاءت به الرسالة المحمدية، وجميع ما اشتملت عليه من عباداتٍ ومعاملاتٍ، وآدابٍ وأخلاقٍ، وحقوقٍ وواجباتٍ كان مبنيًا على أساس حفظ مصالح الخلق في الأولى والآخرة.

**٣-النظر النبوي إلى المآلات:**

لقد راعى النبي ﷺ ما قد يؤول إليه الأمر في جميع تصرفاته وتصرفات أصحابه... فقد سألت عائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- النبيَّ -ﷺ- عَنْ الجَدْرِ أَمِنَ البَيْتِ هُوَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، قُلْتُ: فَمَا لَهُمْ لَمْ يُدْخِلُوهُ فِي البَيْتِ؟ قَالَ: إِنَّ قَوْمَكِ قَصَّرَتْ بِهِمُ النَّفَقَةُ، قُلْتُ: فَمَا شَأْنُ بَابِهِ مُرْتَفِعًا؟ قَالَ: فَعَلَ ذَلِكَ قَوْمُكِ، لِيُدْخِلُوا مَنْ شَاءُوا وَيَمْنَعُوا مَنْ شَاءُوا، وَلَوْلاَ أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ بِالجَاهِلِيَّةِ، فَأَخَافُ أَنْ تُنْكِرَ قُلُوبُهُمْ أَنْ أُدْخِلَ الجَدْرَ فِي البَيْتِ، وَأَنْ أُلْصِقَ بَابَهُ بِالأَرْضِ»(٦).

فتركُ النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لإعادة الكعبة على قواعد إبراهيم كان مراعاةً لحال أهل مكة، وقرب عهدهم بالإسلام، فخشي أن يصيبهم بسبب ذلك نفور ووحشة وريبة تضرّ بدينهم، نظرًا لما

تمكّن في قلوبهم من تعظيم بيت الله، وما نشأوا عليه من رؤية البيت على هذا الحال، فمراعاةً لهذا المآل ترك النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ما كان أكمل.

قال الإمام النووي -رَحِمَهُ اللَّهُ- في شرحه على صحيح الإمام مسلم-رَحِمَهُ اللَّهُ-: «أَخْبَرَ أَنَّ نَقْضَ الْكَعْبَةِ وَرَدَّهَا إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَصْلَحَةٌ، وَلَكِنْ تُعَارِضُهُ مَفْسَدَةٌ أَعْظَمُ مِنْهُ؛ وَهِيَ خَوْفُ فِتْنَةِ بَعْضِ مَنْ أَسْلَمَ قَرِيبًا، وَذَلِكَ لِمَا كَانُوا يَعْتَقِدُونَهُ مِنْ فَضْلِ الْكَعْبَةِ فَيَرَوْنَ تَغْيِيرَهَا عَظِيمًا فَتَرَكَهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»(٧).

وفي مشهد آخر أعرض النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن قتل المنافقين في أكثر حادثة تستوجب القصاص منهم، وهي حادثة الإفك التي استغلها رأس النفاق ابن أبي سلول للطعن في عرض النبي ﷺ، غير أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعرض عن قتله حتى لا يقال: إنه يقتل أصحابه، وحتى لا يؤدي ذلك إلى مفسدةٍ عظيمةٍ وهي إشاعة القتل بين المسلمين لتشكيك أحدهم في دين الآخر واتهامه بالنفاق..

إن المتأمل في سيرة سيدنا رسول الله ﷺ يتضح له ذلك الارتباط الوثيق بين الأحكام الشرعية التي تبرزها نصوص السيرة الشريفة ومشاهدها الخالدة من جهة، ومصالح الأمة الحيوية التي تمثل مقاصد تلك الأحكام من جهة أخرى، ومن ثم فإن كلَّ ما صدر عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يهدف إلى حفظ مصالح الناس العاجلة والآجلة المتعلقة بحياتهم الفردية والأسرية والجماعية والإنسانية، ودرء المفاسد والمضار عنهم..

**٤- الموازنة بين المصالح والمفاسد:**

إن الناظر في سيرة سيدنا رسول الله ﷺ في عهديها المكي والمدني ليقف على نظر مقاصدي دقيق، مبني على فقه الواقع، وفقه الموازنات والأولويات وفقه السنن الإلهية، فقد راعى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بداية الدعوة بمكة المكرمة طبيعة الدعوة، وتدرجها، وبيئتها، ومواقف الناس تجاهها، وقد كف عن دفع مفسدة الاضطهاد والتعذيب الذي تعرض له المسلمون في بداية الدعوة، درءًا لمفسدة أعظم منها، وحفاظًا على أنفس المسلمين، واهتم في هذه المرحلة بصناعة جيل البناء والإصلاح، كما راعى في المرحلة المدنية قوة المسلمين، وعدتهم وعددهم، وما تتطلبه المرحلة من إعداد واستعداد، فأذن لهم بمقارعة الشرك ودفع العدوان، تحقيقًا للمصالح العامة للأمة وأمنها الاجتماعي وسلمها الأهلي، حيث توفرت الشروط المعنوية والمادية لدفع هذه المفاسد كلها.

وفي باب الموازنات يكفي أن نذكر من سيرته الغراء صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلح الحديبية الذي أسس للسلم والطمأنينة والسلام، مكن المسلمين من بيان قيم الخير والفضيلة والتراحم والمحبة والأخوة في الدين التي جلبت إليها كثيرًا من المتطلعين؛ وهو ما لم يدركه بعض الصحابة أنفسهم إلا بعد حين... فقد حقق بهذا الصلح مصالح كثيرةً للأمة، وحقن به دماء أهل مكة والمسلمين جميعًا.

أما يوم الفتح الأعظم لمكة المكرمة فلم يقتص النبي ﷺ من أولئك الذين آذوه وآذوا أصحابه

وأخرجوهم من ديارهم وأخذوا أموالهم بغير حق؛ وإنما أعلن العفو العام عن أهل مكة حفظًا للأنفس من القتل والسبي، وإبقاءً للأموال المنقولة والأراضي بيد أصحابها، وعدم فرض الخراج عليها، وتقديسًا لحرمة البيت العتيق والبلد الحرام، هذا فضلًا عن تحقيق مصالح أخرى كتأليف قلوب أهل مكة على الإسلام بإبراز سماحة الإسلام ومعاني الرحمة للعالمية في الرسالة المحمدية، مما دفع بأهلها الذين كانوا يناصبونه العداء إلى الدخول في دين الإسلام أفواجًا.

**٥- نحو نظر مقاصدي في السيرة الغراء:**

إن إعادة النظر في السيرة النبوية العطرة وفق رؤية مقاصدية ليس نزهةً معرفيةً، ولا ينبغي أن يكون، وإنما هو عمل علمي ومشروع حضاري عمراني غايته الخروج بالأمة من واقع الفتنة المعبَّر عنه بأسلوب النبوة (ذهاب العلم)، وذلك بإعادة بناء النسق العلمي للخطاب الشرعي، وبيان مراعاة الإمكان البشري المعتبر في قصد المكلف، المانع من تحميل الأمة ما لا طاقة لها به في المنهج النبوي.

ومن ثم فإن النظر المقاصدي في السيرة النبوية هو من أكثر ما تحتاج إليه الأمة المسلمة في الوقت الراهن؛ إذ إن ذلك النظرَ يستنطق المشاهد والأحداث والنصوص السيرية ليكتشف عن مقاصد الرسالة النبوية التي جاءت السيرة تطبيقًا ومنهاجًا عمليًا لها.

ذلك بأن إحياء مقاصد الوحي وقيمه، واستدعاء المعاني الإنسانية النبيلة - التي اجتمعت في سيدنا رسول الله ﷺ الرسول الإنسان الكامل في أخلاقه ودينه، والكامل في نبوته التي استوعبت إرث النبوات السابقة-، والوقوف على الأبعاد المقاصدية في السيرة النبوية التي لم تنل حظها مثل ما نالته الجوانب الأخرى، ضرورةٌ للأمة التي تتوق إلى مجدها الخالد وماضيها التليد وخيريتها وشهودها الحضاري.

والحاصل أن النظر المقاصدي في الاستمداد من السيرة النبوية إنما استدعته مقتضيات تحقيق خلودِ السيرة النبوية والامتداد بهداياتها وسننها، وبسطها على جميع جوانب الحياة الإنسانية والتدليل على رعايتها لمصالح العباد، وتخليص الفهم من النظرة الجزئية النصفية التبعيضية والصورة الآلية المجردة البعيدة عن فقه الواقع، حيث انتهى الأمر إلى قواعد مجردة وقوالب بعيدة عن الارتباط بالغايات الأصلية للمنهاج النبوي، إلى درجة قد تفوت المصلحة، وإعادة توجيهه صوب تحقيق مصالح العباد في معاشهم ومعادهم، ومعالجة مشكلاتهم الاجتماعية، وهي الغاية التي من أجلها جاءت الشريعة وبُعث سيد الخليقة وكانت الرسالة..

ومن ثم فإن النظر المقاصدي في السيرة النبوية هو المدخل الأساس العاصم من الانحراف في الاستمداد منها، والعاصم أيضًا من الوقوع في الخلل والزلل والاضطراب في فهمها والوعي بها وتنزيلها.

لذلك فمن الأهمية بمكان - ونحن نتحدث عن النظر المقاصدي في السيرة النبوية- امتلاك القدرة على الوعي بها، وإدراك مراحلها بدقةٍ، ومقاصدها في كل مرحلة، ومرونتها في التعامل مع الواقع من خلال تلك المقاصد، أمرًا ونهيًا، وحظرًا

وإباحـةً، ورخـصةً وعزيمـةً، بحـسب الظـروف والأحـوال، والاسـتطاعات والإمكانـات المتاحـة، وتـوفر الأسـباب، ومـن ثـم القـدرة عـلى تحقيـق خلودهـا، وذلـك بتجريـدها مـن حـدود الزمـان والمكـان وقيودهمـا، وتوليـد الـرؤى، والأحكـام الـشرعية، والحلـول النبويـة للحـالات، مـع مراعـاة الأعمار التي يمر بها المجتمع، وتنزيل هذه الحلول على الواقع في ضوء ظروفه وإمكاناته وموقعه من مسيرة المجتمع الأول وسيرته.

ذلك بأن غياب هذا النظر، وعدم فقه مقاصدِ التعامل مع الحالات المتنوعة من الواقع، وأسباب التركيـز عليهـا، والوقـوف عنـد ظـاهر الأحـداث الـسيرية دون النظـر في حكمهـا وعللهـا ومقاماتهـا وسـياقاتها ومقاصـدها، أدى إلى اخـتلال منهجـي في فهمهـا، كـما نـتج عنه بـروز فـرق خارجة، ونتـوءات فكريـة، لا تتفـق مـع تـوازن الـسيرة النبويـة والمنهـاج النبـوي وشـموله ووسـطيته واعتدالـه وقيمـه ومعـاني الرحمـة فيـه.. أخـذت بعـض الجزئيـات وضـخمتها، وحاولت المرابطة من ورائها، وتعميمها على المنهاج كلـه، فاضـطربت الأولويـات، واهتـزت النِّـسب، وظهـرت الثنائيات المتناقضة، والتعسف في التفسير والتأويل المذهبي ، وهو ما لم يعرفه تنزيل الإسلام الأنموذجي في خير القرون(٨).

ومجمـل القـول: أن النظـر المقاصـدي في الـسيرة النبويـة هـو المـنهج الـصحيح لفهمهـا والـوعي بهـا في كـل مراحلهـا؛ في مكـة المكرمـة والمدينـة المنـورة، والـسلمِ والحـرب، والـدعوةِ والتربيـة والبنـاء الإصـلاح، والعلاقـات الإنـسانية والاجتماعيـة والحـضارية والدوليـة، والـسياسةِ الداخليـة والخارجية، وفي سائر وجوه الحياة المتنوعة...

**خلاصة القول:**

إن الـسيرة النبويـة العطـرة في كـل مناحيهـا انطلقت من اعتبارات مقاصدية وسعت إلى تحقيقها والحفاظ عليها، سواء ما كان منها استجابةً للوحي المنزّل من لدن رب العالمين، أو ما كان اجتهادًا منه ﷺ، مسددًا بالوحي، والمتأمل في المنهاج النبوي في تعامله مع استطاعة المكلف وفقهه لحالته وتقرير الأحكـام الـشرعية يـدرك أن المـنهج النبـوي مـنهج مقاصـدي، والنظـر المحمـدي نظـر مقاصـدي، قـائم على جلب المصالح ودرء المفاسد ومراعاة المآلات، وحفظ الكليات الشرعية والمقاصد النبيلة..

* * *

**الهوامش:**

(١) الاجتهاد المقاصدي، نور الدين الخادمي، تقديم: عمر عبيد حسنة، كتاب الأمة، عدد: ٦٥-٦٦، قطر، ط١: ١٩٩٨م، ١/٣٥.

(٢) صحيح البخاري، كتاب العلم، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «رُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ»، ح٣٧.

(٣) سنن الترمذي، أبواب تفسير القرآن، بَابٌ: وَمِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ، ح٣٠٨٧.

(٤) مسند أحمد بن حنبل، ١٤/٥١٣..

(٥) مسند البزار، ١٥/٣٦٤.

(٦) صحيح البخاري، كتاب الحج، بَابُ فَضْلِ مَكَّةَ وَبُنْيَانِهَا، ح١٥٠٧.

(٧) شرح النووي على صحيح مسلم، ٩/٨٩..

(٨) المنهج النبوي والتغيير الحضاري، برغوث عبد العزيز بن مبارك، سلسلة كتاب الأمة الصادر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، العدد ٤٣، رمضان ١٤١٥هـ، من تقديم: عمر عبيد حسنة، ص١٠-١١ بتصرف.

* * *